ISSN : 2335-1071 ردمد:

مخبر الخطاب الحجاجي
أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر
جامعة ابن خلدون -تيارت

فصل الخطاب

ملف العدد:

الشعرية و تلاشي وثوقية التصنيف الأجناسي
جهود الباقلاني في الكشف عن مظاهر انسجام الخطاب القصصي القرآني
حوارية البلاغة بين التخييل و الإقناع لدى حازم القرطاجني
النفي البلاغي في القرآن الكريم
التمثيل الحجاجي للكناية والتعريض في القرآن الكريم

ديسمبر 2016

العدد 16
المجلد الرابع

دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث
العلمية والنقدية واللغوية والأدبية والبلاغية
باللغتين العربية والأجنبية

فصل الخطاب
العدد السادس عشر
ديسمبر 2016 Décembre
Revue n°16
Faslo El-Khitab

ISSN: 2335-1071

Laboratoire du discours argumentatif
ses origines, ses références ses perspective en Algérie
Université Ibn-Khaldoun-Tiaret

Faslo El-Khitab

(Art d'Argumenter)

Décembre 2016

Revue périodique a vocation scientifique, traitant des domaines de la critique littéraire, la languistique et la rhétorique en langues arabe et étranger

Revue N 16
Volume 04

فصل الخطاب

دورية أكاديمية محكمة يصدرها مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وأفاقه في الجزائر
تعنى بالدراسات والبحوث العلمية النقدية واللغوية والأدبية والبلاغية باللغتين العربية والفرنسية

العدد السادس عشر

ديسمبر 2016

ردمد ISSN 2335-1071

رقم الإيداع القانوني 1759 - 2012

جامعة ابن خلدون – تيارت
الجزائر

توجه المراسلات إلى إدارة المخبر أو المجلة
ص.ب. 78 زعرورة _ تيارت 14000 _ الجزائر
أو عبر: faslkhitab@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قواعد النشر بالمجلة

1. تهتم المجلة بنشر كل الأبحاث التي تعالج قضايا في حقل الحجاج والنقد الأدبي والبلاغتين القديمة والجديدة وما يدور في حقل اللغويات وله علاقة بهذه المواضيع . كما يمكن أن تنشر المجلة نقدا متخصصا أو مراجعة أو ترجمة لأحدث المدونات العلمية الصادرة باللغة العربية أو اللسان الأعجمي.

2. لغة النشر عربية، فرنسية، إنجليزية، على أن يصحب البحث بملخصين مجتمعين في صفحة، أحدهما باللغة العربية والآخر إما باللغة الفرنسية أو الإنجليزية.

3. ألا يكون المقال قد سبق نشره أو قدم للنشر في أي إصدار آخر .

4. يقدم المقال المكتوب بالعربية بخط **(Traditional Arabic)** قياس 14 في المتن و11 في الهامش، أما المكتوب بالأجنبية بخط **Times New Roman** قياس 12 في المتن و10 في الهامش وكلاهما بمسافة 1 سم بين الأسطر وهوامش 4 سم (من الجهات أربع)، وألا يتجاوز البحث عشرين (20) صفحة بما في ذلك الإحالات، التي يشترط أن تكون إلكترونية، أما الجداول والترسيمات والأشكال فتكون صورا **IMAGE** .

5. بعد موافقة اللجنة الاستشارية المؤهلة للخبرة العلمية على الأعمال والبحوث، تعرض على محكمين اثنين من ذوي الاختصاص يتم اختيارهما بسرية مطلقة. وتحتفظ المجلة بحقها في أن تطلب من صاحب المقال التعديل بما يتناسب ووجهة نظرها في النشر .

6. لا تعبر البحوث المنشورة بالضرورة عن رأي المخبر، والمجلة غير مسؤولة عما ينتج عن أي بحث، والدراسات والبحوث التي ترِد المجلة لا تُردّ إلى لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

7. ترتيب المقالات في المجلة يخضع للتصفيف الفني وليس لاعتبارات أخرى كمكانة الكاتب أو شهرته أو غير ذلك.

رئيس المجلة

أ.د. مدربل خلادي

مدير جامعة ابن خلدون ـ تيارت

المدير المسؤول عن النشر

أ.د. زروقي عبد القادر

مدير مخبر الخطاب الحجاجي

رئيس التحرير : أ.د. بوزيان أحمد

هيئة التحرير

د. داود امحمد

د. سبع بلمرسلي

د. درويش أحمد

د. بوعرعارة محمد

د. غربي بكاي

د. قوتال فضيلة

د. كراش بخولة

د. بن فريحة جيلالي

د.معازيز بوبكر

د.عزوز الميلود

الهيئة العلمية الاستشارية

أ.د. بوهادي عابد ـ جامعة تيارت

أ.د. فيدوح عبد القادر ـ البحرين

أ.د. مرتاض عبد الجليل ـ جامعة تلمسان

أ.د. خلف الجردات ـ المملكة الأردنية

أ.د. العشي عبد الله ـ جامعة باتنة

أ.د. بوحسن أحمد ـ المغرب

أ.د. حسن نعمي ـ المملكة العربية السعودية

أ.د. عباس محمد ـ جامعة تلمسان

أ.د. بشير بويجرة محمد ـ جامعة وهران

أ.د. آمنة بلعلى ـ جامعة تيزي وزو

أ.د. توفيق بن عامر ـ تونس

أ.د. سطمبول الناصر ـ جامعة وهران

أ.د. حسن البنداري ـ عين شمس ـ القاهرة

أ.د. خميسي حميدي ـ جامعة الجزائر

أ.د. دراوش مصطفى ـ جامعة تيزي وزو

أ.د. كواري مبروك ـ جامعة بشار

الفهـــــــرس

كلمة رئيس التحرير.....05
-الشعرية وتلاشي وثوقية التصنيف الأجناسي،
تشظّي الأصل الجامع وتكوثر التشجير المفارق(سطمبول ناصر).....07
- جهود الباقلاني في الكشف عن مظاهر
انسجام الخطاب القصصي القرآني(بن يمينة رشيد).....25
- الانفصال في العربيّة، "الضّمير أُنموذجًا"(نافع سلمان جاسم).....41
- حوارية البلاغة بين التخييل والإقناع لدى حازم القرطاجني(آيت حمدوش فريدة).....63
- مفهوم النظم عند المعتزلة،
الملامح الفكرية لرؤية المعتزلة للإعجاز في الخطاب القرآني(دحماني شيخ).....71
- منهج دراسة المجاز في القرآن الكريم. بين فكر البلاغيين والأصوليين(طويل مصطفى)..... 89
- التمثيل الحجاجي للكناية والتعريض في القرآن الكريم(بختي العياشي).....105
- النفي البلاغي في القرآن الكريم(ميسومي نور الهدى).....123
- الحجاج في الخطاب النقدي الدرامي التلفزيوني:
الإشكاليات والرهانات(القحطاني فيصل محسن).....143
- تعليمية النص الحجاجي في المرحلة الثانوية
الأسس النظرية والإجراءات التطبيقية (حاج هني محمد/ روقاب جميلة).....159
- الأداء الصوتي وأثره في تلقين رسالة الخطاب القرآني(حيمور إسماعيل).....173
- الملامح التّداولية لأسلوب التّأكيد في التّراث النّحوي العربي
مقاربة سيّاقيّة من خلال نظرية الأفعال الكلاميّة(بومسحة العربي).....189
- المرجعيات ودورها في تشكيل المصطلح بين مدّ التّراث وجزر الحداثة(شادلي عمر).....201
- علم اجتماع الأدب، فروعه ومناهجه(أحمد الحاج أنيسة).....221
- بلاغة السرد في قصيدة النثر، أدونيس أنموذجا(حميدي شريفة).....235
- دلالة الرمز الصوفي في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر(زرارقة الوكال).....243
- الشعر العربي بين رؤيا المقاربة والمفارقة في النقد(يعقوبي قداوية).....253
- سؤال الهوية في الخطاب الديني في رواية "قليل من العيب يكفي"(بوشيبة عبد السلام).....269
- حضور الخطاب الايديولوجي في الرواية الجزائرية "الوساوس الغريبة"(بوشاقور مليكة).....279
- التراث والنص الروائي العربي(العرابي محمد).....291
- انفتاحيه بنية النص اللغوية، في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه"(مسك خيرة).....299
- لغة الاختصاص بين الغموض الدلالي وتحديات الترجمة(بختو عبد الحميد).....315

كلمة رئيس التحرير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أما قبل .....

مع طموح متفلت من رقابة الواقع والمحيط، يتجاوز العراقيل والمثبطات، وإرادة تعبد الطريق وتذلل الصعاب، وطاقم أغلبه شباب متطلع لرؤية أفضل، تشرئب روحه إلى المعرفة في أقصى مداها، وفي مختلف مناحيها، قد يهون عليه ركام المعوقات والتعب وتردي ما صارت إليه الجامعة، وهو الذي عايش أوج عنفوانها ومع كل ذلك فيستنهض الأمل من جديد ويشحذ الروح والهمة معا، فتولد طاقة أخرى ترمم ما انصدع، وتوصل ما انقطع في حيوية متوشحة بالجسارة الروحية، والتحدي المتسم بالوقار.

وذلك ما يلاحظه الرائي المتأمل أو المتعجل من أسراب الطلبة والطالبات وهي تفد على قاعات مخبر الخطاب الحجاجي والمورد العذب كثير القصاد كما قال الشاعر قديما، وهو ما يزيد الثقة بالنفس، ويزرع الثقة والقبول، ثم احتساب كل ذلك عند الله تعالى .

وذلك ما دأبت عليه نخبة هذا المخبر، من خفض الجناح، أو التقرب إلى طلبة الدكتوراه أو الماستر أو حتى الليسانس، مما رغب هؤلاء الطلبة إلى الاندماج فرادى ومجموعات في هذا المخبر إما بالاستشارة أو اقتناء الكتب، فترى القاعة الكبرى كحديقة غناء وقد فاح أريجها، وباح عبقها. فتستقطب الفراشات والنحل، إما للاستجمام أو لصنع العسل، وذلك هو شأن مجلة فصل الخطاب، لسان حال مخبر الخطاب الحجاجي، في استقطابها للدراسات الجادة والواعدة في شتى أصناف المعرفة، تراثية كانت أم حداثية، ولا عبرة عندنا لهذا التصنيف الزمني، وإنما العبرة للمعرفة وحدها التي تنبني على التراكم، فلا قيمة للحاضر إلا باعتباره إفرازا للماضي، ولا قيمة لهذا الماضي إلا اذا كان حاضرا في وعينا ووجداننا حضورا يفاعل الراهن تفاعلا منتجا .

وهذا الوعي بهذه الإشكالات المتداخلة هو ما سيلاحظه القارئ في هذه المقالات المتنوعة كالشعرية وتلاشي وثوقية التصنيف الأجناسي، تشظّي الأصل الجامع وتكوثر التشجير المفارق، وجهود الباقلاني في الكشف عن مظاهر، وانسجام الخطاب القصصي القرآني، والانفصال في العربيّة، "الضّمير أُنموذجًا"، وحوارية البلاغة بين التخييل والإقناع لدى حازم القرطاجني، ومفهوم النظم عند المعتزلة، الملامح الفكرية لرؤية المعتزلة للإعجاز في الخطاب القرآني، ومنهج دراسة المجاز في القرآن الكريم. بين فكر البلاغيين والأصوليين، والنفي البلاغي في القرآن الكريم، والأداء الصوتي وأثره في تلقين رسالة الخطاب القرآني، والملامح التّداولية لأسلوب التّأكيد في التّراث النّحوي العربي مقاربة سيّاقيّة من خلال نظرية الأفعال الكلاميّة، والمرجعيات ودورها في تشكيل المصطلح بين مدّ التّراث وجزر الحداثة، وعلم اجتماع الأدب، فروعه ومناهجه، وبلاغة السرد في قصيدة النثر، أدونيس أنموذجا، ودلالة الرمز الصوفي في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر، والشعر العربي بين رؤيا المقاربة والمفارقة في النقد، وسؤال الهوية في الخطاب الديني في رواية "قليل من العيب يكفي"، وحضور الخطاب الايديولوجي في الرواية الجزائرية "الوساوس

الغريبة"، وانفتاحيه بنية النص اللغوية، في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه"، ولغة الاختصاص بين الغموض الدلالي وتحديات الترجمة،

وإيمانا منا بانفتاح المعرفة، مع اعترافنا بمفهوم التخصص الذي دأب عليه البحث الأكاديمي في صرامته ، ومع كل ذلك تظل المجلة وفية لخطها الذي ارتضته تخصصا، مقيدا ومفتوحا في الآن ذاته. هذا التخصص التي هي مشروطة بوجوده تحديدا في الدراسات الحجاجية باعتبارها مدار المخبر ، وعليها بُني وبها يستمر، ومنها ينطلق وإليها يعود. وهو وفاء لشرعية عنوانه، ولذلك جاءت دراسات الحجاج في هذه المقاربات كالحجاج في الخطاب النقدي الدرامي التلفزيوني: الإشكاليات والرهانات، وتعليمية النص الحجاجي في المرحلة الثانوية الأسس النظرية والإجراءات التطبيقية، والتمثيل الحجاجي للكناية والتعريض في القرآن الكريم.

وعلى كثرة ما يصلنا من مقالات كثيرة في التخصصات المختلفة، وعلى تفاوت كفاءتها العلمية فإن الفيصل الوحيد هو التحكيم السري، ولم تعد مجلة فصل الخطاب حكرا على أساتذة الجزائر فقد وصل صداها الى المغرب والامارات والسعودية وقطر والعراق وحتى بلغات أخرى وعلى هذا فإن طاقمها يرحب بكل الدراسات الجادة وسوف تبقى وفية لخطها آملين أن يزيدنا الله مددا بلا عدد .....

ولله الفضل والمنة

الأستاذ الدكتور: أحمد بوزيان

جهود الباقلاني في الكشف
عن مظاهر انسجام الخطاب القصصي القرآني

الدكتور: رشيد بن يمينة

جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

تكشف منظومة الدرس الإعجازي في الموروث البلاغي العربي عن إسهامات علمية فعالة في مجال المقاربة النصية، التي تروم رصد مظاهر الاتساق والانسجام اللغوي والدلالي، في الخطاب الأدبي عامة، وفي الخطاب القرآني خاصة. ولعل في معالجة القاضي: أبي بكر الباقلاني(403هـ) ظاهرة انسجام الخطاب القصصي القرآني من خلال الكشف عن آليات الربط والارتباط بين الآيات والسور القرآنية، التي تزخر بالمشاهد القصصية، ما يؤشر على ذلك.

الكلمات المفتاحية: الباقلاني، القصصي القرآني، انسجام، الخطاب، آليات الربط، بلاغة الكلمة، النظم، الإعجاز.

El Baklani's Efforts in Revealing the Manifestations of the Qur'anic Narrative Discourse Harmony

Abstract

The miraculous lesson system in the heritage of the Arab rhetoric reveals effective scientific contributions in the field of textual approach, intending to monitor aspects of consistency and linguistic and semantic coherence in a literary discourse in general, and Quranic discourse, in particular. What shows evidence on that is the judge Abu Bakr el Baklani's (403 AC) examination of harmony speech phenomenon in the Qur'anic narrative speech by revealing connectivity and link mechanisms between Koranic verses and texts, which is replete with anecdotal scenes .

Keywords: Semantic coherence, literary discourse, connectivity, harmony, anecdotal scenes

إلى جانب الباقلاني، فإن الكثير من إنجازات رواد الدرس الإعجازي على غرار: الخطابي (ت388 هـ) والرماني (ت386 هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت471 هـ) أصبحت تستقطب اليوم جهود الباحثين والدارسين المعاصرين، لما تكتنزه من إشارات دالة، وما تمثله من كشوفات

تاريخ تسليم البحث: 13ديسمبر 2015.

تاريخ قبول البحث: 14جوان 2016.

مبكرة، ما فتئ التطور العلمي الحديث في مجال العلوم اللغوية خاصة، يكتشف أسرارها، ويجلي مكنوناتها القيمة.

بين بلاغة الكلمة وبلاغة النظم في القرآن:

خصص القاضي أبو بكر الباقلاني حيزا لا بأس به من كتابه المعروف "إعجاز القرآن" للحديث عن الإعجاز البلاغي والنظمي في قصص القران. ذلك أنه حين عدد أوجه الإعجاز القرآني صنف الإعجاز القصصي ثانيا بعد الوجه الأول المتمثل في الإخبار عن الغيوب[1] وقبل الوجه الثالث المتعلق بالإعجاز البلاغي[2].

بيد أن حديث المؤلف عن القصص القرآني في بداية فصول كتابه لم يتعد الإشارات المقتضبة والأحكام المجملة، المرتبطة أساسا بالجانب المضموني فيه، أي ما تعلق ببعده الإخباري التاريخي، حيث عد ذلك من أقوى الدلائل على صدق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، على اعتبار أن الأخير كان أميا لا يعرف عن سير المتقدمين وأخبارهم شيئا فجاءت تلك القصص حجة ومعجزة له لأنها "من العجيب الممتنع على من لم يقف على الأخبار، ولم يشتغل بدرس الآثار وقد حكى في القران تلك الأمور حكاية من شهدها، وحضرها "[3].

وقد أجل الباقلاني تفصيل الحديث في موضوع الإعجاز البياني للقصص القرآني إلى فصول متأخرة نسبيا من كتابه[4]، في الوقت الذي تحدث فيه بإسهاب عن العديد من جوانب ومعالم الإعجاز البلاغي ضمن الأبواب الرئيسية التي تصدرت كتاب "إعجاز القرآن".

ويمكننا حصر أهم المسائل والمحاور التي تناولها الباقلاني في سياق حديثه عن السردية الإعجازية في ثلاثة محاور أساسية: محور يخص الكلمة في القرآن، مفردة كانت أو جملة، وآخر يتعلق بالنظم والفاصلة، أما الأخير فمجاله التصريف أو تنوع طرق عرض القصة الواحدة .

لكن هذه المحاور الثلاثة تنصهر كلها في مجال رئيسي مهيمن هو مجال النظم، وذلك على اعتبار الأخير الغاية التي يروم المؤلف تجلية معالم الإعجاز فيها، بالعكوف على دراسة وتحليل عناصر ومكونات ذلك النظم، وإدراك علائقها الداخلية ودرجة ترابطها، والكشف عن سماتها التركيبية والبلاغية وصولا إلى أداء وظائفها الدلالية والجمالية .

ففي المحور الأول ينوه المؤلف بقيمة الكلمة المفردة في ذاتها من حيث قدرتها على احتضان المعنى الملائم للسياق، وإنتاج الدلالة الأنسب لهذا المقام أو ذاك.

يأتي الباقلاني إلى قول الحق عز وجل﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**﴾[5].

فيقف عند كلمة (ليأخذوه) شارحا ومحللا:" وجه الوقوف على شرف الكلام، أن نتأمل موقع قوله (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) وهل تقع في الحسن موقع قوله (ليأخذوه) كلمة ؟".

وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة ؟ وهل يسد مسد ه في الأصالة نكتة؟ لو وضع موضع ذلك "ليقتلوه" أو "ليرجموه" أو" لينفوه" أو "ليطردوه" أو" ليهلكوه" أو "ليذلوه"؟ ونحو هذا ما كان ذلك بعيدا ولا بارعا، ولا عجيبا، ولا بالغا[6].

ثم يرد بلهجة الناقد الناصح قائلا:" فانقد موضع هذه الكلمة، وتعلم بها ما تذهب إليه من خير الكلام، وجميل الألفاظ، والاهتداء للمعاني "[7].

وهكذا يحاول الباقلاني تنبيهنا -كما أشار إلى ذلك الخطابي قبله- إلى أن الدوال هما ترادفت وتمثلت مدلولاتها لا يمكن أن تصل إلى حد التساوي المطلق في الدلالة، ذلك أن النظام المحكم للقرآن يحتم أن يكون لكل لفظ دلالته المختلفة عن دلالة أي لفظ آخر مهما تقاربا الاثنان في المعنى[8].

ومن المعروف أن الرأي السائد لدى اللغويين قديما وحديثا ينكر وجود الترادف الكامل[9].ذلك أن الأخير يفترض التماثل التام بين الدوال المتشابهة مهما تعددت وتباينت السياقات التي توظف عبرها« وهو أمر غير وارد فعلا، وإذا ما حدث هذا فإنه تظهر بالتدرج فروق معنوية دقيقة تجعل كل لفظ يستقل بجانب من الجوانب المختلفة للمدلول الواحد».[10]

هذا الذي تنبه إليه الباقلاني قاده إلى إدراك قاعدة لسانية أخرى تتعلق ببنية اللغة القائمة على التضاد أو الاختلاف، كما قرر ذلك –حديثا – عالم اللغويات الشهير فرديناند دو سوسير (1875-1913) بقوله« لا وجود في اللغة إلا للفروق». [11]

ومن ثم فان مقياس المفاضلة بين المترادفات يقوم على دقة الاختيار وحسن التوزيع في ثنايا الكلام حسب مقتضى الحال:« وكيف لا يكون كذلك، وأنت تحسب أن وضع (الصبح) في موضع (الفجر) يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعرا أو سجعا؟ وليس كذلك، فان إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه،

وتضرب بجرانها، وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى لو وضعت موضعها في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عند استقرار »[12].

وربما ظن المرء أن الباقلاني إنما يعطي المزية في حسن الكلام وبراعة القول إلى الكلمة المفردة في ذاتها فحسب[13]؛ لذلك نجده يسارع إلى إزالة هذا اللبس حين يشيد بقيمة التأليف الذي يضم اللفظة إلى أخواتها في رباط نظمي محكم: « فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها وضامتها ذواتها، وتجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها؟» [14].

مظاهر الانسجام والاتساق في الخطاب القصصي القرآني:

وحينيتنقل الباقلاني بين عينات محتارة من القصص القرآني مقتفيا معالم الجمالية الإعجازية عبرها، نقف على مدى وعي الرجل بطبيعة النظم القرآني في بنيته الخطابية الشمولية، إذ نلفيه يرصد مظاهر انسجام النص القرآني، واتساقه تركيبا ودلالة، وصولا إلى إثبات تماسكه، وتلاحم آياته وسوره، وشدة صلتها بعضها ببعض«حتى يكون كالكلمة الواحدة»[15].

ولا يخفى على باحث متخصص اليوم مدى ما يشغله مفهوم اتساق النص وانسجامه من موقع مركزي في الأبحاث والدراسات اللغوية والأدبية في مجالات مستحدثة كلسانيات النص، وتحليل الخطاب، وعلم النص وغيرها[16].. حيث المقصود بتحليل اتساق النص الإحاطة به من حيث هو تسلسل ونسيج texture تسعى الظواهر اللغوية المتنوعة فيه إلى تنامي النص وتناسله، وتضمن له استمراره. [17]

إن استقراء متفحصا للعينات النظمية القرآنية التي رصدها الباقلاني في موضوع القصة القرآنية يكشف عن وعي متقدم لدى المؤلف، كغيره من المشتغلين بالحقل القرآني تفسيرا وإعجازا بأهمية البحث«في كيفية تماسك النص القرآني، أي كيف تتآخذ الآيات والسور مشكلة بذلك نصا منسجما» [18]. وهو أمر يستدعي البحث في كيفية تماسك عناصره الشكلية (اللغوية والتركيبية)، وتعاضد دلالاته وأغراضه (المضامين والأحكام الأدبية التربوية والتشريعية).

ويكون الباقلاني بذلك من أوائل من خاضوا في موضوع"التناسب" في القرآن أو في ما سمي لاحقا" بعلم المناسبة"، حتى وإن لم يشر إلى هذا المصطلح صراحة. فطريقة تعاطيه مع نظم الآيات الكريمة داخل السورة الواحدة خاصة، يقوم على أساس العمل على اكتشاف مختلف العلاقات الرابطة بينها الظاهرة منها والمضمرة؛ وهذا ما ينسجم مع كون المناسبة بين

الآيات والسور تقوم على أساس «أن النص وحدة بنائية مترابطة الأجزاء» [19]. وهو ما يستدعي البحث عن آليات ووسائل ذلك الترابط كما بينها "الزركشي" في شرحه لعلم المناسبة: " ولهذا قيل المناسبة أمر معقول؛ إذا عرض على العقول تلقته بالقبول. وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها؛ ومرجعها- والله أعلم- إلى معنى ما رابط بينهما عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي؛ وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني؛ كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه. أو التلازم الخارجي، كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في **باب الخبر. وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط**، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء" [20].

نسق التكرار (التصريف):

من أبرز الشواهد القصصية التي وظفها الباقلاني تعبيرا عن انسجام النظم القرآني قصة موسى- عليه السلام- المعروفة بكونها أكثر القصص ورودا وتكرارا في القرآن. يأتي المؤلف للقصة المذكورة فيتخير منها مشهد رؤية كليم الله النّار من جانب الطّور، ثم يبسط أمامنا ثلاث صيغ حوارية لهذا المشهد: الأولى في سورة "النمل": ﴿ **إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** [21] [الآية7] والثانية من سورة "طه"[الآية 10]﴿ **إِذْ رَأى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً** ﴾ أما الثالثة ففي سورة القصص[الآية29]: ﴿ **لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾.

إن هذا التنويع الأسلوبي في عرض الواقعة الواحدة أو وصف الموقف نفسه، يعد في نظر الباقلاني معلما بارزا من معالم انسجام الخطاب القرآني، وهو يقوم هنا على علاقة التكرير أو التصريف- بتعبير القدامى- التي من شأنها أن تحقق للموضوع الواحد وحدته الدلالية، مهما تعددت وتنوعت صيغ عرضه؛ في الوقت الذي تكشف فيه طرق العرض تلك عن طاقات تعبيرية جمالية لا محدودة للأسلوب القرآني، فيكون اجتماع هذه بتلك من أقوى الدلائل على إعجازه الخارق، أو كما يقول الباقلاني معلقا على الآيات السابقة: « قد تصرف في وجوه، وأتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم وأظهر للحجة عليهم. وكل كلمة من هذه الكلمات وإن أنبأت عن قصة فهي بليغة بنفسها تامة في معناها» [22].

ثم يعود المؤلف ليربط المشهد السابق، كما ورد في سورة "النمل"، بلاحقه: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[23] ليكشف لنا عن ملمح آخر من ملامح انسجام النص القرآني، ذاك المتعلق بتسلسل وترابط آياته في نسق

دلالي منظم، ترفده جملة من الأدوات والآليات والقرائن اللغوية والمعنوية كالعطف، والفصل والوصل، والفاصلة وغيرها من الروابط التي تحقق للنص اتساقه وتماسكه. يربط المؤلف بين المشاهد الحوارية في بداية سورة النمل كما وردت متسلسلة عبر الآيات حتى قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[24] ليعتبرها حلقات موصولة في رباط نظمي محكم شارحا ذلك بقوله: " فانظر إلى ما أجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء، وعظم شأن هذا الثناء، وكيف انتظم مع الكلام الأول، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الربوبية، وما دل به عليها؛ من قلب العصا حية، وجعلها دليلا يدله عليه، ومعجزة تهديه إليه" [25].

ثم يردف منوها بالبعد البلاغي لهذا النظم، مشيدا- بشكل خاص – باللمسة البيانية في اختيار اليد البيضاء معجزة وبرهانا، كناية عن نور اليقين وصفائه من كل شائبة: " وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة، ثم ما شفع به هذه الآية، وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء" [26].

من جهة أخرى يحرص الباقلاني على ربط الوقائع القصصية الواردة في السورة القرآنية الواحدة ببقية الآيات التي تعقبها أو تتخللها وصفا وتعليقا وتقريرا لمختلف الأحكام والأغراض التي تستشف من كل قصة، لترتبط بالغاية العقدية الكبرى"الإيمان بالله"؛ حيث تغدو" الحادثة محورا أو نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات، والنتائج والاستدلالات... يبدأ السياق منها، ثم يسترط حولها ثم يعود إليها، ثم يجول في أعماق الضمائر، وفي أغوار الحياة، ويكرر هذا مرة بعد مرة، حتى ينتهي بالقصة إلى خاتمتها، وقد ضم جناحيه على حقل من المعاني والدلائل والتوجيهات، لم تكن القصة إلا وسيلة إليها، ونقطة ارتكاز تتجمع حولها" [27].

نسق الائتلاف (التشاكل):

ولا شك أن تفطن الباقلاني إلى هذا المنهج القرآني الفريد في التعاطي مع الفن القصصي دفعه إلى العمل على استجلاء معالم الاتساق النظمي في آي الذكر الحكيم عامة، كما يتجلى ذلك في نظام تتابع الفواصل في السورة الواحدة، وتناسب فواتحها وخواتمها، وتبادل مواضع الفصل والوصل عبرها، وغير ذلك مما أشار إليه المؤلف بقوله: «ثم فكر بعد ذلك في شيء أدلك عليه" وهو تعادل هذا النظم في الإعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة. فأجل الرأي فيه سورة سورة، وآية آية، وفاصلة فاصلة، وتدبر الخواتم والفواتح،

والبوادي والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقل والتحول، ثم اقض ما أنت قاض. وإن طال عليك تأمل الجميع فاقتصر على سورة واحدة أو على بعض سور» [28].

ويسوق الباقلاني جملة من الشواهد القرآنية تجسيدا لتماسك لحمة النظم القرآني عامة، وداخل السورة الواحدة منه خاصة، فها هو يعود إلى قصة موسى مع فرعون من جديد، ولكن من خلال سورة" القصص" هذه المرة، فيدعونا بلهجة الواثق المتيقن إلى تأمل تماسك نظم هذه السورة، وانسجام دلالاتها، وتناسق تراكيبها: انطلاقا من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[29]. فيشيد بفصاحة هذا النظم البديع، ثم ينتقل إلى رصد أوجه تناسق تراكيبه، وتواشج دلالاته، فهو يشتمل « على جملة وتفصيل، وتفسير ذكر العلو في الأرض باستضعاف الخلق، بذبح الولدان وسبي النساء. وإذا تحكم في هذين الأمرين، فما ظنك بما دونهما؟ إن النفوس لا تطمئن على هذاالظلم، والقلوب لا تقر على هذا الجور. ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد، وكفت في التظليم وردت آخر الكلام على أوله، وعطفت عجزه على صدره» [30].

هكذا تتآلف وحدات الخطاب في النص القرآني بواسطة علاقات الإجمال والتفصيل والبيان والتأكيد، ثم تأتي الفاصلة لتوثيق الصلة بين آخر الكلام وأوله في رونق وسلاسة لا أثر فيها لتكلف أو حشو.

ويعود المؤلف ليوضح لنا أن تآلف الوحدات النظمية داخل الآية السابقة يمتد ليربط هذه الآية بلاحقتها مباشرة، حين ذكر المولى عز وجل وعده تخليص أولئك المستضعفين بقوله: ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾[31]، حيث يرى الباقلاني أن «هذا من التأليف بين المؤتلف، والجمع بين المستأنس» [32].

وهذه إشارة موجزة في لفظها، عميقة في مدلولها، تثبت إدراك الباقلاني لآليات الاتساق التركيبي والمعجمي عبر توالي الجمل القرآنية، وما ينتج عن ذلك من تماسك دلالي بين مضامين الآية الكريمة. فالتأليف الذي أشار إليه يقوم على وسيلتين أساسيتين من وسائل الاتساق التركيبي في مستواه النحوي هما: العطف والإحالة[33]، حيث يتحقق للخطاب مبدأ الترابط على مستواه السطحي[34]؛ في الوقت الذي يبرز فيه الائتلاف على المستوى الدلالي من خلال علاقات الإجمال والتفصيل والتفسير بين الآيات الأولى من سورة القصص[35]، يقول الزمخشري: «فإن قلت: علام عطف قوله (ونريد أن نمن) وعطفه على(نتلو) و(يستضعف) غير سديد؟ قلت: هي جملة معطوفة على قوله: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ لأنها نظيرة "تلك" في

وقوعها تفسيرا لنبأ موسى وفرعون، واقتصاص له. (ونريد) حكاية حال ماضية. ويجوز أن يكون حال من يستضعف، أي يستضعفهم فرعون، ونحن نريد أن نمن عليهم. فإن قلت: كيف يجتمع استضعافهم وإرادة المنة عليهم؟ وإذا أراد الله شيئا كان ولم يتوقف إلى وقت آخر، قلت: لماكانت منة الله بخلاصهم من فرعون قريبة الوقوع، جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم »[36].

صحيح أن الباقلاني لا يقدم لنا شرحا مستفيضا كما يفعل الزمخشري المفسر، لكن إشاراته الموجزة تدل على إلمامه بطبيعة التعبير القرآني القائمة على الإيجاز والتكثيف في المجال القصصي تحديدا، فالآيتان الرابعة والخامسة اللتان تصدرتا سورة القصص تؤطران جميع التفاصيل الحدثية لقصة موسى وفرعون المبسوطة على امتداد السورة المذكورة، إنهما (الآيتان)، تمثلان محطتي البداية والنهاية: البداية التي كانت باستشراء طغيان فرعون وتنكيله ببني إسرائيل المستضعفين، والنهاية التي قلبت الأوضاع فتحققت فيها إرادة القوي العزيز بتدمير الطاغية وجنوده، ونصرة أولئك المستضعفين، جعلهم أئمة هداة، وتوريثهم ملك فرعون، وتلك منة عظمى، ونعمة كبرى من المولى عز وجل.

نكتة أخرى من نكت الائتلاف النظمي في القصص القرآني يلفت الباقلاني نظرنا إليها، إنها قصة"بلقيس" ملكة سبأ مع النبي" سليمان عليه السلام، حيث يختار المؤلف منها موقف رد الملكة على خطاب سليمان، ليرشدنا إلى ائتلاف الصياغة النظمية عبر أسلوب الحوار، وما يزخر به من دلالات عميقة، فيقول: «متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام، بعد ذكر العنوان والتسمية، هذه الكلمة الشريفة العالية: ﴿**أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾[37] والخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدبير، وانشغلت به من المشورة، ومن تعظيمها أمر المستشار، ومن تعظيم أمرها وطاعتها بتلك الألفاظ البديعة، والكلمات العجيبة البليغة، ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها: ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ**﴾[38]، وذكر قولهم: ﴿ **قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ** ﴾[39] لا تجد في صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به[40] ».

وهذه إشارات دالة على كثافة التعبير القرآني، وجماليته البلاغية، حين يجتمع البيان مع الإيجاز، فتكتنز لطائفه الدلالية في تراكيب موجزة متسقة، وفواصل قصيرة متناغمة، كما يشرح ذلك الباقلاني مواصلا تعليقه على الآيات السابقة: «وقوله ﴿والأمر إليك﴾ تعلم براعته بنفسه، وعجيب معناه، وموضع اتفاقه في هذا الكلام، وتمكن الفاصلة، وملاءمتها لما قبله، وذلك قوله: ﴿فانظري ماذا تأمرين﴾ ثم إلى هذا الاختصار، وإلى البيان مع الإيجاز، فإن الكلام

قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والإيجاز، وهذا مما يزيده الاختصار بسطا لتمكنه ووقوعه موقعه، ويتضمن الإيجاز منه تصرفا يتجاوز محله وموضعه»(41).

نسق الاختلاف(التباين):

وإذا كان النظم السابق يقوم على مبدأ الائتلاف، فإن الباقلاني، حرصا منه على إثبات شمولية إعجاز النظم القرآني يقودنا إلى تفحص عينة قرآنية أخرى من حقل القصص دائما، يقوم النظم فيها على مبدأ الاختلاف أو التباين، يتعلق الأمر هنا بمطلع سورة "الإسراء" إذ يقرر المؤلف بداية أن التنويع الدلالي الذي يزخر به هذا المطلع يجعل الآيات تبدو كأنها منفصلة في ظاهرها، لكنها في الحقيقة متصلة في باطنها. ذلك أن الآية الأولى في السورة تتحدث عن حادثة الإسراء المرتبطة بالنبي صلى الله عليه وسلم، ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾(42)، ثم تنعطف الآية الثانية مباشرة إلى الإخبار عن قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل: ﴿**وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً** ﴾(43).

يعتبر الباقلاني أن هذا الخروج لم يحدث انقطاعا أو تفككا في النظم، وإنما العكس هو الصحيح كما يوضح: «هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتصور في صورة المنقطع، وقد تمثل في هذا النظم لبراعته، وعجيب أمره، وموقع ما لا ينفك منه القول. وقد يتبرأ الكلام المتصل بعضه من بعض، ويظهر عليه التثبيج والتباين للخلل الواقع في النظم. وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلا، ولم يبن عليه تميز الخروج »(44). وإذا كان المؤلف يقر هنا بتحقق الوصل من خلال الفصل، فإنه بالمقابل لا يتجاوز الإقرار إلى التحليل والتعليل، لذلك لم يشرح لنا أوجه الارتباط الدلالي بين الآيتين المذكورتين، فلم «يحدد بالضبط وجه العلاقة بين الآية الأولى والآية الثانية»[45] لكنه سرعان ما استدرك ذلك في التعليق على الآيات اللاحقة. حيث جاءت الآية الثالثة بتحول جديد، فبعد محمد وموسى يأتي ذكر نوح - عليهم السلام- ثم العودة إلى الحديث عن بني إسرائيل وما اقترفوه من فساد رغم نعم الله وأفضاله عليهم، كما قال عز وجل: ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً * وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً** ﴾ (46)

يبرر الباقلاني هذا الخروج معتبرا الفصل هنا وصلا بناء على جملة من القرائن الدلالية كما يشرح ذلك بقوله: «ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب إلى ذكر نوح، وكيف أثنى

عليه، وكيف يليق صفته بالفاصلة، ويتم النظم بها، مع خروجها مخرج البروز من الكلام الأول إلى ذكره، وإجرائه إلى مدحه بشكره، وكونهم من ذريته يوجب عليهم أن يسيروا بسيرته، وأن يستنوا بسنته في أن يشكروا كشكره، ولا يتخذوا من دون الله وكيلا، وأن يعتقدوا تعظيم تخليصه إياهم من الطوفان لما حملهم عليه، ونجاهم فيه، حين أهلك من عداهم به، وقد عرفهم أنه إنما مؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم فيما سلط عليهم من قبلهم وعاقبهم، ثم عاد عليهم بالأفضال والإحسان حتى يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم، وعلى نوح إلى ولدهم، وهم من ذريته. فلما عادوا إلى جهالتهم وتمردوا في طغيانهم، عاد عليهم بالتعذيب »[47].

هكذا يستخلص الباقلاني من آيات قليلة هذا الكم الهائل من الدلالات الكامنة ليثبت من خلالها تحقق صفة التعضيد المعنوي بين حلقاتها، من حيث تآزر دلالاتها، وتضافر غاياتها، فبنو إسرائيل من ذرية نوح كفروا بالله، في حين كان الأحرى بهم أن يتذكروا نعمة إنقاذه أجدادهم من الطوفان، ثم يسلموا بفضله عليهم خاصة، حين نجاهم من فرعون وأورثهم أموالا وبنين، وجعلهم أكثر نفيرا. ثم إن الغاية من بعث الرسل، في النهاية، واحدة، مهما تباعدت وتباينت محطاتهم التاريخية (نوح، موسى، محمد) ما دامت هي الإيمان بالله وحده لا شريك له.

وبعد المد السردي السابق بحمولته الإخبارية المكثفة، يخلص الخطاب القرآني إلى تقرير الغاية التربوية للقصص المذكور، فتتغير صيغة الخطاب لتنتقل زمنيا من الماضي إلى الحاضر والمستقبل، أي مما كان إلى ما يجب أن يكون؛ وبذلك يرتبط السبب بالنتيجة، أو القصة بغايتها حسب مقتضيات الحمولة الدلالية بشقيها السردي والوعظي. ومرة أخرى يكون الخروج أو الانتقال من صيغة إلى صيغة أخرى مجاورة في الخطاب القرآني معلما بارزا على تماسكه العجيب وانسجامه الفريد. يقول الباقلاني مستطردا: «ثم لم يخل تضاعف الكلام مما ترى من الموعظة على أعجب تدرج، وأبدع تاريخ بقوله: ﴿ **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا...**﴾[48]ولم ينقطع بذلك الكلام. وأنت ترى الكلام يتبدد مع اتصاله، وينتشر مع انتظامه. فكيف بإلقاء ما ليس منه في أثنائه، وطرح ما بعده في أدراجه إلى أن خرج إلى قوله: ﴿**عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا...**﴾[49] يعني إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى العفو، ثم خرج خروجا آخر إلى ذكر القرآن»[50].

البنية الكلية ثمرة انسجام الخطاب:

إن طريقة تعاطي الباقلاني مع النظم القصصي في القرآن تبدو فريدة متميزة، فهو لا يتتبع التفاصيل الحدثية للقصة برمتها، ولا يتوقف عند جميع مشاهدها كما وردت متتالية داخل السورة الواحدة، أو مبثوثة في عدة سور؛ وإنما يعمد إلى رصد محطاتها الدلالية الكبرى

في شكل مقاطع ولقطات جزئية معتبرا إياها مرتكزات مفصلية تعمل على ترابط أجزاء القصة من جهة، وتماسك أجزاء السورة الواحدة بشتى موضوعاتها وأغراضها من جهة أخرى؛ فهاهو يختزل قصة موسى عليه السلام في ثلاث آيات محورية من سورة الشعراء قائلا: «ولو عرفت قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء، لما طلبت بينة سواها، بل قصة من قصصه وهي قوله: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ**﴾ [51] إلى قوله: ﴿**مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ*وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ*كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائيلَ* فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ** ﴾[52] حتى قال: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾[53] ثم قصة إبراهيم عليه السلام »[54].

وينتقل المؤلف بعد هذا ليربط القصتين المذكورتين بالخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم في السورة نفسها: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** ﴾[55] ليشيد بفواصل هذا النظم البديع قائلا: «وهذه كلمات مفردة بفواصلها، منها ما يتضمن فاتحة وفاصلة، ومنها ما هي فاتحة وواصلة، وفاصلة. ومنها كلمة بفاصلتها تامة، دل على أنه نزله على قلبه ليكون نذيرا. وبين أنه آية لكونه نبيا. ثم وصل بذلك كيفية النذارة فقال: ﴿ **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[56]»[57]

وأخيرا يقفز بنا المؤلف إلى آخر السورة باعتباره المحطة النهائية المتوجة لسلسلة حلقاتها المتصلة، التي تمثل على رغم طرقها لموضوعات شتى، وتناولها لمواقف متباينة كلا كاملا موحدا؛ يستطيع القارئ الحصيف أن يدركه بكشف وتفحص مختلف العلاقات التي تؤسس لذلك التماسك المعجز، سواء كانت تلك العلاقات متجلية في سطح الخطاب القرآني أو ثاوية في عمقه على امتداد السورة. ولعل هذا القارئ النوعي هو الذي عناه الباقلاني بدعوته قائلا: «فتأمل آية آية. لتعرف الإعجاز، وتتبين التصرف البديع والتنقل في الفصول إلى آخر السورة. ثم راع المقطع العجيب وهو قوله: ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ** ﴾[58] هل يحسن أن تأتي بمثل هذا الوعيد وأن تنظم مثل هذا النظم، وأن تجد مثل هذه النظائر السابقة، وتصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة»[59].

غير أن تعويل المؤلف على نباهة القارئ أو المتلقي، ربما حال دون إفاضته في الشرح والتحليل، وأعاقه عن الوصول إلى كشف اللطائف الأسلوبية القرآنية في أدق جزئياتها، فلم يتجاوز في كثير من الأحيان«الأحكام العامة والعبارات الرنانة التي لا ترشد القارئ أو تهديه إلى شيء محدد»[60].

وإذا كان معظم الباحثين والمؤرخين يعيبون على الرجل هذا المسلك، فإنه علينا بالمقابل أن نتفهمه في نطاق ثقافة عصر كعصره يموج بالمذاهب ويضطرب بالآراء وتصطرع فيه الاتجاهات المتعددة المتباينة[61]. ومن ثم كثرت فيه المناظرات والمساجلات التي كان اللمح السريع، والإشارة الذكية يكفيان أحيانا مؤونة الشرح والإطناب، لدى متلق نوعي متخصص أنجبته بيئة سجال كلامي محتدم[(*)]، وحراك معرفي مكثف في مختلف المجالات الدينية والأدبية والكلامية والفلسفية وغيرها.[62]

هذا إلى جانب كون الباقلاني في موقف دفاع مستميت – كغيره من علماء الإعجاز- عن القرآن وإعجازه ضد المناوئين والمشككين، وهو موقف ربما دفعه أحيانا إلى الاسترسال في عرض الشواهد القرآنية البديعة دونما تركيز على بسط وتفصيل لطائفها الدلالية، وتحليل نكتها النظمية والأسلوبية بدقة وعمق.

وحتى لا نبخس الباقلاني حقه، نكتفي بالإشارة – في نهاية هذا البحث- إلى نفاذ بصيرته وعمق خبرته بأساليب نظم الكلام البليغ، من خلال إشارته الذكية إلى تفاوت مستوى تلك الأساليب بين أجناس الأدب وفنونه، وذلك انطلاقا دائما من معطيات عصره، حيث كان الشعر يتربع على عرش الفصاحة والبلاغة، بينما يتبوأ أدب القصص والأخبار مكانا أسفل ذلك «أن القصة عند العربي لم تكن من جوهر الأدبي – كالشعر والخطابة والرسائل مثلا- ولذلك كانت ميدان الوعاظ وكتاب السير والوصايا، والسمار، يوردونها شواهد قصيرة على وصاياهم وما يذكرون من حكم أو يسوقون في أسمارهم ومجالس لهوهم».[63]

وهذاالتفاوت والتباعد لا نلمسه في أسلوب القرآن الكريم، الذي يتساوق نظمه، وتتعادل بلاغته على امتداد آياته وسوره، لا يزل فيها أسلوب قصصه عن أساليب بقية الموضوعات قيد أنملة، «فليس في القرآن ما يعلو بعضه بعضا في البلاغة، وإنما فيه ما يفترق يه بعضه عن بعض في صورة النظم والتأليف، تبعا لطبيعة المعنى والغرض. وكل في صورة التي ليس وراءها غاية في حسن العرض وجمال النسق، وروعة الأداء، وقوة التأثير».[64]وفي ذلك صورة من أجلى صور الإعجاز والتحدي، حيث لا يستطيع بشر أن يصوغ قصة بتلك الطريقة العجيبة التي تجمع بين السرد والوعظ، وتربط سياق القصة بغيرها من الموضوعات والأغراض والمواقف في سلاسة وانسجام وتناسب، إنه العجز الذي يكشف الباقلاني صوره للمتلقي بقوله: «ثم لا تقدر أن تنتقل من قصة إلى قصة، ومن فصل إلى فصل حتى تتبين عليك مواضع الوصل، ويستصعب عليك أماكن الفصل. ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة، وأمثالا سائرة وحكما جليلة، وأدلة على التوحيد بينة، وكلمات في التنزيه والتحميد شريفة»[(65)].

هكذا يتضافر جلال المعنى مع جمال المبنى، وهو ما لم تعهده ذائقة متلق القصص والأخبار، هذا اللون الذي لم يبدع فيه الشعراء الأفذاذ، ولم يبتكر فيه الأدباء النداد، مثلما يبرهن على ذلك الباقلاني حين يتساءل مقررا: « وإن أردت أن تتحقق ما وصفت لك فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين هل تجد كلامه في المديح والغزل والفخر والهجو يجري مجرى كلامه في ذكر القصص؟ إنك لتراه إذا جاء إلى وصف واقعة، أو نقل خبر عامي الكلام، سوقي الخطاب، مسترسلا في أمره متساهلا في كلامه، عادلا عن المألوف من طبعه، وناكبا عن المعهود من سجيته»[66].

مراجع البحث وإحالاته

---

1. ينظر: الباقلاني، إعجاز القران الكريم، تحقيق أبو بكر عبد الرزاق، مكتبة مصر، الفجالة، ص: 30-31.
2. ينظر: م. ن، من ص: 31الى ص: 42.
3. م. ن ،ص: 44.
4. سورة غافر الآيات: 5-6
5. إعجاز القران: ص 143
6. م. ن ،ص. ن
7. ينظر: عالم سبيط النيلي، النظام القرآني، مقدمة في المنهج اللفظي، دار أسامة، عمان، الأردن، ط1، 1419هـ، /1999م، ص: 29.
8. د. أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات العامة، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، منشورات جامعة حلب، سوريا، 1427هـ/2006م، ص: 278.
9. المرجع نفسه، ص278(نقلا عن: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر: كمال محمد بشير، مكتبة الشباب، القاهرة، 1975، ص: 97)

10. F. de Saussure,Cours De Linguistique General,Payot,Paris,p: 166

11. الباقلاني، إعجاز القرآن، ص: 133.

12. يمكن أن نذكر هنا موقف الباحث" علي مهدي زبتون" حين اعتقد أن مذهب الباقلاني« مذهب عجيب يعطي الألفاظ المفردة قيما جمالية سوف لا يقبلها اللاحقون» إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي، ص: 67)، ويبدو أن الأمر قد التبس على الباحث بسبب الاستعمال المتكرر للفظ: " كلمة" و"كلمات" عند الباقلاني، فظن أن المعنى ينصرف إلى الألفاظ المفردة، في حين أن الباقلاني إنما كان يوظف المصطلح القرآني الذي يسري مفهومه على الكلمة المفردة وعلى الجملة بل وعلى القرآن كله حيث: " القرآن: كلام الله وكلم الله وكلماته، وكلمته... " ينظر: ابن منظور.

13. ابن مظور، لسان العرب المحيط، ت، الشيخ عبد الله العلايلي، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، ب، ت، ج، ص: 290-291.

14. أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، دار نهضة، مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ب. ت، ص: 238.
15. د. محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى اسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروتن ط1، 1991، ص: 05، ص: 138.
16. دومينك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت/ منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1428هـ /2008م، ص: 19.
17. لسانيات النص، ص: 165.
18. د. نصر حامد بوزيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط: 6، 2005، ص: 160.
19. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر بيروت، ج2، ص: 41.
20. الطور، الآية: 34.
21. إعجاز القرآن، ص: 137.
22. النمل، الآية: 8.
23. النمل، آية: 12.
24. إعجاز القرآن، ص: 137.
25. م. ن، ص. ن.
26. د. أحمد جمال العمري، مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري. دار المعارف، القاهرة، مصر، ب. ت، ص: 308.
27. إعجاز القرآن، ص: 140.
28. القصص: آية: 4.
29. إعجاز القرآن، ص: 140.
30. القصص: الآية: 5
31. إعجاز القرآن، ص: 140
32. ينظر: لسانيات النص، ص: 205.
33. ينظر: د. سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1997، ص: 123.
34. الآيات الأولى من سورة القصص: ﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)﴾
35. الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج3، ص: 392.
36. النمل، الآية: 31

37. النمل، الآية: 32.

38. النمل، الآية: 34.

39. إعجاز القرآن، ص: 138-139.

40. إعجاز القرآن، ص: 139.

41. الإسراء، الآية: 1.

42. الإسراء، الآية: 2.

43. إعجاز القرآن، ص: 152.

44. د. نصر حامد أبو زيد، ص: 170. ويوضح المؤلف أن « أن المناسبة بين الإسراء وقصة بني إسرائيل يمكن أن تكتشف من زاويتين: الزاوية الأولى أن الحدث الإسراء كان الهدف منه معايرة الغيب، وهو هدف يمكن أن يتحقق بالقصص القرآني. والفارق بين الإسراء والقصص أن الإسراء يعتمد على "العيان" بينما يعتد القصص على "البيان " لقد كان حدث الإسراء معاينة للغيب الميتافيزيقي، والقصص بمثابة إخبار أو بيان للغيب التاريخي. الزاوية الثانية التي يمكن من خلالها اكتشاف "المناسبة" بين إسراء محمد ليلاً وبين خروج موسى من مصر خائفا يترقب بعد أن وكز المصري فقتله». المرجع نفسه، ص: 171.

45. الإسراء، الآيات: 3 إلى 6.

46. الباقلاني، ص، 152-153.

47. الإسراء، 7.

48. الإسراء، الآية: 8.

49. الباقلاني، ص: 153. يقصد قوله تعالى في الآية من سورة الإسراء، ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا﴾.

50. الشعراء، آية 52.

51. الشعراء الآيات 57-58-59-60.

52. الشعراء، الآية 63.

53. إعجاز القرآن، ص: 142.

54. الشعراء، الآيات، 192-193-194-195.

55. الشعراء، الآيتان: 214-215.

56. إعجاز القرآن، ص: 142.

57. الشعراء، الآية الأخيرة: 227.

58. الباقلاني، ص: 142.

59. د. أحمد سيد محمد عمار، نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، دار الفكر دمشق، ط2، 2000، ص: 145.

60. د. عبد الرؤوف مخلوف، الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، (دراسة تحليلية نقدية)، دار مكتبة الحياة بيروت، 1973م، ص: 96.

61. ينظر: أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8، 1974، ص: 20.

62. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، ط1، 1982، ص: 524.

63. د. عبد المنعم خفاجة، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1412هـ، 1992م، ص: 55

64. الباقلاني، ص، 141.